هذه الحرب كيف نَفْهمها؟

منير شفيق

في التناقضات والأولويات

الحرب أعلى أشكال حلّ التناقض. والحرب هي السياسة بلغة أخرى والحرب كشّافةٌ لوضعيةِ المجتمع المدني في حال السِّلم. والحرب هي التي تُظْهر حقيقةَ المواقف ووجهتَها. والحرب...

هذه التعريفاتُ وما شابَهها ردّدها منظِّرو الحرب، ومنظِّرو الماركسية، وهي لا تستغرق كلَّ ما قيل في الحرب طبعًا. ولكنْ ثمة سمةٌ للحرب قد تهمُّنا في ظروفنا العربية الراهنة، وهي كَشْفُها لطبيعة التناقضات وأولويات التغيير في وضعٍ معقَّد، مركَّب، كالوضع العربي، الذي يتّسم:

- بالتجزئة من جهة؛
- وبوجود الدولة العِبْرية في قلبه، من جهة ثانية؛
- وبسيطرةٍ إمبريالية أو تحكّم خارجي، اقتصادي وسياسي وثقافي، قد تراوَحَ مداه من بلدٍ إلى آخر، من جهة ثالثة؛
- وبحالات من الاستبداد والفساد، متفاوتةٍ أيضًا من قُطْر إلى آخر، من جهة رابعة؛
- هذا فضلاً عما تَحْمله المكوّناتُ الداخليةُ الخاصةُ بكلّ بلد، أو ذاتُ الطابعِ العربيّ العامّ، من إشكالاتٍ وتناقضات، من جهة خامسة.

هذا ويُمْكن أن يُضاف، من جهة سادسة وسابعة وثامنة، ألوانٌ من التخلّف والتناقضات الثانوية الكثيرة الأخرى.

ولعلّ أبرزَ ما دار الصراعُ حوله في تحديد الأولويات خلال السنوات العشر الماضية (في الأقلّ) تمثَّلَ في إعطاء البعض الأولويةَ للديموقراطية أو للتنمية أو لحقوق الإنسان، أو لهذا الثلاثيّ، على مواجهةِ المشروع الصهيوني والهيمنة الأميركية. وذهب البعضُ إلى إعطاء الأولوية لحلّ الإشكالات الخاصة بالأقليّات، وقضايا المساواة المواطنية، والمرأة، أو بناء مجتمع المعرفة، والتكيُّف مع العولمة. وركّز بعضٌ آخر على حلّ التناقضات المتعلّقة بالجوانب الثقافية والحضارية، وبناء مجتمع المؤسسات ودولة القانون.

وكان بالطبع لدى كلّ اتجاهٍ ما يقوله في تحديده التناقضَ الرئيسي والتناقضاتِ الثانوية. ويُمْكن القول إنّ كثيرين اعتبروا كلَّ حديث عن مكافحة الصهيونية أو الهيمنة الخارجية أو الدعوة إلى تحرير الإرادة وتعزيز الاستقلال وإرساء تضامن عربي وسوق مشتركة وتكامل اقتصادي عربي، .. إنما هو «ترديدٌ لشعارات الماضي،» و«استخدامٌ للغة الخشبية».

أما الذين لم يَصِلوا إلى حدّ رفض الإشارة إلى المشروع الصهيوني والهيمنة الأميركية فقد استخدموا حجةَ «تنظيف البيت أولاً،» أو اعتبار «الإطاحة بالاستبداد هي الطريق إلى مواجهة الكيان الصهيوني والهيمنة الأميركية». ولكنّ تحديدَ الأولوية يَفْترض، بالضرورة، إخضاعَ الإشكالات أو التناقضات الأخرى لها. وهذا يقتضي عمليّاً، عن وعي أو دون وعي، تأجيلَ أو تحييدَ أو تخفيفَ الصراع معه.

والواقع أنّ حلّ الخلافات في تحديد الأولويات بين قضايا كثيرة يحتاج إلى معيار. فالحسم بين ما يُطْرح من أولويات لا يتمّ من خلال النقاشات إلاّ في حدود معينة. وإنّما يأتي الحسمُ، في الغالب، من خلال انتقال التناقض الأشدّ إلحاحًا وتحدّيًا وأهميةً إلى مستوى الحرب، أو إلى ما هو أدنى من ذلك قليلاً.

لقد توالت الإنذاراتُ خلال الخمسة عشر عامًا الماضية لتؤكّد أنّ التناقض الرئيسي ما زال كامنًا في المشروع الإسرائيلي والمشروع الأميركي «الشرق أوسطي،» اللذيْن راحا يتماهيان إلى أن بَلَغا قمةَ تماهيهما في عهديْ إدارة بوش منذ ٢٠٠١ حتى الآن.

فقد بقيتْ جبهتا المقاومة والصراع مشتعلتيْن في فلسطين ولبنان، حتى بعد هزيمة الاحتلال الإسرائيلي في جنوبيّ لبنان، وبعد اندلاع الانتفاضة وتصاعدِ الحرب في فلسطين إلى اليوم. ثم جاء الإنذارُ باندلاع الحرب الأميركية الإسرائيلية ضدّ العراق واحتلاله. وتبعتْه الهجمةُ لتغيير المجتمعات الإسلامية و«دمقرطتها» باعتبارها «حاضنةَ الارهاب.» وتعاظمت الضغوطُ الأميركية على فلسطين ولبنان

غابرييلا بوليسوفا

رِجْلُ دُمْيةٍ في الضاحية الجنوبية

وسورية وإيران وعلى كلّ الدول العربية بلا استثناء من أجل إخضاعها للأجندة الأميركية الإسرائيلية، المتمثّلة في إعادة صوغ المنطقة مجتمعةً ومنفردةً.

إنّ كلّ مَنْ تابعَ الهجمةَ الأميركيةَ السياسيةَ على البلاد العربية وإيران بعد احتلال العراق كان عليه أن يدرك أين مكمنُ التحدّي الأكبر الذي يعبِّر عنه التناقضُ الرئيسي. لكنْ ظلّ هنالك مَنْ تجاهَلَه متعمِّدًا، أو منجرّاً إلى ما حدّدهُ من أولويةٍ بعيدةٍ منه. حتى جاء العدوانُ العسكريُّ المزدوج على قطاع غزة والضفة الغربية من جهة، وعلى لبنان ـ كلِّ لبنان ـ من جهة أخرى.

إنّ المستوى الذي بلغتْه الحربُ بين العدوان الإسرائيلي وأميركا، مباشرةً وبلا مراعاةٍ لمؤيديّها و«أصدقائها،» من جهة، وبين حزبِ الله والشعب اللبناني من جهة ثانية، قد حَسَمَ أولويات الصراع عمليّاً وموضوعيّاً وجماهيريّاً. فكلُّ الذين حَدّدوا لأنفسهم، أو لأحزابهم، أولوياتٍ أخرى، اضطرُّوا إلى ابتلاع برامجهم وشعاراتهم، ولو مؤقّتًا، ليقولوا شيئًا في استنكار العدوان، وفي التعامل مع الجبهة المناهضة للعدوان، ناهيك عن إبداءِ إعجابٍ متلعثمٍ بالمقاومة الناجحة التي خاضها حزبُ الله.

باختصار، حَسَمتْ هذه الحربُ أشكالَ تحديد الأولويات بالنسبة إلى كلّ حريصٍ على أن يَحْمل برنامجًا صحيحًا في مواجهة قضايا التغيير. أما مَن انحاز إلى الجهة الأخرى عن وعي وتصميم، فلن تَنْفع معه هذه الحربُ ولا غيرُها، حتى لو انحنى أمام عاصفتها وأَظْهَرَ عكسَ ما يُبْطن.

على أنّ تحديد الأولوية هنا لا يعني إلغاء التناقضات الأخرى، وإنّما يعني ـ ببساطة ـ عدمَ إعلاء أيّ من الإشكالات الأخرى عليها. وبالمناسبة، فإنّ تحديد الأولوية في مواجهة المشروع الصهيوني الأميركي قد يسهِّل عمليةَ الإطاحة بالاستبداد والفساد أيضًا، ولاسيّما عندما يلتقي هذان الأخيران بالتبعية والانخراط في المشروع الأميركي الإسرائيلي للمنطقة. إذّاك يَفْقد الاستبدادُ كلَّ شرعية في نظر أوسع الجماهير، لا في نظر هذا النفر من النخبة أو ذاك. وهذا شرطُ كلِّ تغييرٍ وحلٍّ للتناقضات الداخلية، كما لمواجهة التحدّيات الخارجية طبعًا. المشكلة تختلف حين يَصْحب الاستبدادَ قَدْرٌ من الممانعة للمشروع الأميركي الإسرائيلي في المنطقة؛ ففي تلك الحال لا مفرّ من إبقاء الأولوية لمناهضة ذلك المشروع.

هذه الحرب كيف نَفْهمها؟

إنّ تجربة هذه الحرب تعطي مؤشّرًا إلى حالة النظام الذي يُفهم منه التواطؤُ مع العدوان، أو تغطيتُه، أو حتى السكوتُ عن استنكاره. فالنبض الشعبي، المتشكّل في الوعي تاريخيّاً، لا يخطئ في تحديد الأولويات عندما يتعلّق الأمرُ بالعدوان الخارجي الإسرائيلي الأميركي على الأمة، مستفردًا هذا البلدَ أو ذاك من بلدانها. وهذا يفسِّر ما شاع من غضب شعبي على بعض الأنظمة العربية، أين منه كلُّ ما قيل في الاستبداد والفساد! وهذا يفسِّر لماذا لا يراهن أغلبُ أصحاب المشروع «الديموقراطي» في بلادنا على جماهير الأمة، بل يبحثون عن التغيير من خلال النظام نفسه أو من الخارج.

قبل اندلاع هذه الحرب، وبفضل النخب الطائفية العراقية، شُحنت الأجواءُ بما سمّي «التناقض السنّي ـ الشيعي،» وأريد منه أن يعلو كلَّ التناقضات، بما فيها التناقضُ مع المشروع الأميركي الإسرائيلي للمنطقة (أي البلاد العربية وإيران ولاحقًا تركيا). فيصبح حزبُ الله عدوّاً للسنّة، وتغدو «حماس» و«الجهاد» عدوَّيْن للشيعة على سبيل المثال. غير أنّ الحرب الأخيرة وَجّهتْ ضربةً قاسيةً إلى الاتجاهات التي حاولتْ أن تَنْقل الصراعَ إلى إطار حرب شيعية ـ سنّية أو عربية ـ إيرانية. فإذا بالأغلبية الساحقة من الشيعة والسنّة في طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها توحِّد موقفَها ضدّ العدوان الإسرائيلي الأميركي، وتعلن وقوفَها إلى جانب حزب الله والشعب اللبناني، أيْ إلى جانب مَنْ ناهَضَ العدوان من شيعةٍ وسنّةٍ ومسيحيين ودروز.

مِنْ هنا يتأكّد كيف أنّ الحرب لا تكتفي بكشف طبيعة التناقضات والأولويات فحسب، وإنّما أيضًا حقيقةَ الوعي الشعبي وحقيقةَ المواقف عمومًا.

الحرب الأخيرة: الأسباب والتوقيت والحُجّة

إذا كانت وزيرةُ الخارجية الأميركية قد اعتبرتْ أنّ هدفَ الحرب هو توليدُ «شرق أوسط جديد،» وأسْمَتْ ما عاناه لبنانُ من تقتيلٍ وتهجيرٍ وتهديمٍ بـ «مخاض الولادة» اللازم من أجل ولادة الوليد الجديد؛

وإذا كان الرئيس الأميركي قد اعتبر أنّ من شأن هذه الحرب إضعافَ الموقف الإيراني من ناحيةِ تمسُّكِه ببرنامجه النووي؛

إذا كان ذلك كذلك، فقد كَشَفَ كلٌّ من رايس وبوش أنّ هذه الحرب لم تكن ردةَ فعل على أَسْر الجنديَيْن الإسرائيليين، وإنّما هي خطوةٌ على طريق تغيير الشرق الأوسط والحربِ على إيران. ولهذا لا يصحّ أن يظلّ هنالك مَنْ يَعْتبر أنّ أَسْرَ الجنديَيْن تَسبَّبَ بهذه الحرب، أو أنّ حزب اللّه أخطأ في حساباته حين أَقْدم على عملية «الوعد الصادق.» فهذه العملية تَدْخل ضمن قواعد اللعبة التي أُرسيتْ في اتفاقية نيسان ١٩٩٦ (تحييد المدنيين)، وكُرِّستْ خلال السنوات الستّ الماضية التي تكرَّر أمثالُها ـ وآخرُها عمليةٌ أكبرُ منها بكثير، هي «عملية الغَجَر،» وقد تمّت قبل شهريْن، وشارك فيها مائتا مقاتل من حزب الله احتلُّوا موقعًا إسرائيلياً، لكنّهم لم يَعْثروا فيه على جنود لأَسْرهم.

وإذا بحثنا عن حدثٍ عَجَّلَ في اندلاع هذه الحرب أكثرَ ممّا فعلتْ عمليةُ أَسْر الجنديَيْن، فسنجده، **أولاً**، في لقاء لارجاني ـ سولانا في بروكسيل، إذ بلّغ الأولُ الثاني رفضَ إيران إعطاءَ جوابٍ عن العرض الأوروبي قبل انعقاد قمة مجموعة الثماني ـ وهو الموعد الذي أصرّ عليه بوش أشدَّ الإصرار. وقد فُهِمَ من تأجيل إيران ردّها إلى نهاية آب (أغسطس) أنّه سيأتي سلبيّاً.

وسنجده، **ثانيًا**، في موعد انعقاد قمة مجموعة الثماني في بطرسبورغ، إذ راهن بوش ـ من خلال حرص ڤلاديمير پوتين على نجاحها تحت رعايته ـ على أن يَخْرج ببيان جماعي يَدْعم الموقفَ الإسرائيلي، ويغطّي الحربَ، ويرسل تحذيرًا مشتركًا إلى إيران.

لكنّ هذه التفصيلات التي كانت وراء الاستعجال في تحديد موعد إطلاق الحرب قد حَجَبَتْها حجّةُ أَسْر الجنديَيْن ـ وهي حجّة ينبغي ألاّ تكرِّس أو تَجُرَّ أحدًا وراءها. ذلك لأنّ تحديدَ أهداف الحرب ومستواها، والموقفِ الأميركي منها، والحشدِ

كيرستن شايد

ساحة العديسة العامة

الدولي حولها، لا يَتْرك مجالاً للشكّ في أنّ قرارها والإعدادَ لها مُعَدّان مسبّقًا. أما موعدُها فكان بالنسبة إلى أميركا و«إسرائيل» متوقّفًا على الردّ الإيراني وانعقاد قمة مجموعة الثماني بل لو جاء الردُّ إيجابيّاً، لما وقعت الحرب!

وبدهيٌّ أنّه لو قُدِّرَ لهذه الحرب أن تحقّق هدَفَها بتركيع الموقف اللبناني، أو دفعِه إلى الانقسام التقاتلي الحادّ في الداخل، أو سَحْقِ قواتِ حزب الله واغتيالِ قائدها سماحة السيد حسن نصر الله، لكانت المنطقةُ الآنَ قد دَخَلَتْ مرحلةً سيّئةً جداً من أوجه عدة لا حاجةَ إلى تعدادها وباختصار: لو قُدِّرَ ذلك لكان لبنانُ غيرَ لبنان، ولكانت القضيةُ الفلسطينيةُ أقربَ إلى التصفية، ولكانت الهجمةُ الأميركيةُ الإسرائيلية على المنطقة قد انتقلتْ إلى مرحلة شنّ الهجوم العامّ على المنطقة ـ ولا نستثني دولةً، فضلاً عن سورية وإيران أو العراق والسودان.

المقاومة على طريق النصر

لكنّ «العتمة لم تأتِ كما يريد الحرامي» [اللصّ] كما يقولون. فقد قوبلت الهجمةُ الأولى التي استهدفت الضاحيةَ والبُنى التحتيةَ والجنوبَ بصمودٍ شعبيٍّ لبناني، وبتماسكٍ سياسيٍّ عامّ التقى عند استنكار العدوان وشجبه وبالطبع فَشِلَ القصفُ، الذي استهدف أولَ ما استهدف قَتْلَ السيِّد حسن نصر الله أو أيٍّ من قيادات حزب الله غيلةً واغتيالاً.

وفي الأسبوع الثاني حاولت الاستراتيجيةُ العسكرية الإسرائيلية تغطيةَ فشلها باحتلال محور مارون الرأس ـ بنت جبيل ـ عيترون. وإذا بقوات «غولاني» (نخبة الجيش الإسرائيلي البرية الضاربة) تصطدم بمقاومةٍ ضارية، وتفاجَأُ بكمائنَ وهجماتٍ لم تتوقّعها وإذا بهذه الهجمة تتحطّم، ويعلَنُ الانسحابُ من بنت جبيل بعد أن وقعتْ خسائرُ فادحةٌ في الأفراد والدبّابات. وبهذا تحقَّقَ أولُ انتصار عسكري بري هامّ تسجّله المقاومةُ الإسلامية فبالرغم من محدوديّته إلاّ أنّه كان فاتحةَ الانتصارات البرية، ليضاف إلى حملة الصواريخ التي انطلقتْ منذ أول يوم تردُّ على القصف الإسرائيلي فتغطّي غالبيةَ المستوطنات الحدودية في الشمال الفلسطيني

صعَّدت «إسرائيل» من قصف المواقع المدنية لتَشْمل البقاعَ والشمالَ والطرقَ الحدودية مع سورية وتوسّعتْ في قصف الضاحية وقرى الجنوب وصور. ثم أعلنتْ عن توسيع الهجوم البري بعد استدعاء عشرات الألوف من جنود الاحتياط وبقيت

هذه الحرب كيف نفْهمها؟

الحربُ تدور على هذا المنوال: دمارٌ واسعُ النطاق في لبنان، وضحايا تعدّوا الألفَ من المدنيين، وتهجيرُ أكثر من مليون، وتدميرُ كلّ الجسور. وفي المقابل استمرّ حزبُ الله في إرسال صواريخه لتَشْمل حيفا وعكّا وصفد والخضيرة، مهدِّدةً تل أبيب في كلّ لحظة، كما هدَّدتْ بتدمير مصافي النفط والمصانع الكيماوية في حيفا.

أما على مستوى المعارك البرية الواسعة فقد حدث في عشرات المواقع في العمق ما حدث في محور بنت جبيل. وأصبح عددُ الدبابات المدمَّرة بالعشرات. وبهذا مُني الهجومُ البري بالفشل ولم يُنقذْه القفزُ على بعض النقاط الخالية عن طريق الإنزال الجوي ليسجّل «انجازًا»؛ فقد تشكّل نتيجةً للمعارك شبهُ إجماع في الدولة العبرية على أنّ العدوان فشل عسكريّاً في تحقيق أهدافه، واعتُبِرَ توقُّفُه بعد ٣٣ يومًا «كسبًا» للجيش الإسرائيلي، الذي بقيتْ مواقعُه المتقدِّمة على الأرض اللبنانية في حالةِ حصار، ودبّاباتُه تحت مرمى الصواريخ. ولولا ذلك لما تحرّكَ مجلسُ الأمن.

لم يستطع أولمرت أن يسجّل نصرًا غيرَ ما ناله في القرار ١٧٠١ (وهو قرارٌ لم يعبّر عن ميزان القوى ونتائج المعركة عسكريّاً، ولا عن الهزيمة السياسية للعدوان). فقد سارعت الدولُ العربية، ولو متأخِّرةً، إلى التحرك وإسماع صوتها الأبحّ. ولم تبق دولةٌ في العالم الثالث إلا وشَجَبتْ ما ارتُكِبَ من مجازر بحقّ المدنيين وبحقّ لبنان. وارتفع منسوبُ التحركات الشعبية ضدّ العدوان في العالم كلّه، وهي ملوِّحةٌ بأعلام حزب الله ولبنان وفلسطين.

إلى هنا يجب أن يذكّر، وبأعلى درجات الإعجاب، بالخطّة الدفاعية المدروسة التي أعدّها حزبُ الله طوال ست سنوات من الجهد والعرق، ومن الحيطة والحذر والسرية في إخفاء المواقع والصواريخ. ويَشْمل ذلك استمراريةَ الحزب في إطلاق الصواريخ وتصعيدِها، وامتلاكَ زمام المبادرة مع كلّ تغيير في استراتيجية العدوّ وتكتيكاته. لقد بِتْنا أمام قيادة عسكرية حَكَمَها خطٌّ سياسيٌّ صحيح، وشحَنَتْها روحُ استشهاديةٌ وعملٌ وصبرٌ وشجاعة. وقد أثبتتْ أنّها متفوِّقة على قيادة العدو، عدا في النواحي المتعلّقة بالسلاح المتطور والتكنولوجيا العالية والدبابات والطائرات والبوارج. فمن خلال قدراتٍ ماديةٍ متواضعة مقارنةً بقدرات العدوّ، لكنْ بقدرات متفوِّقة من حيث الثقة بعدالة القضية ومن حيث المعنوياتُ والإيمانُ والذكاءُ وحسنُ التدبير والتدبّر ودقةُ الخط السياسي الصحيح، تمكّن حزبُ الله من أن يُفْشل العدوانَ من الناحية العسكرية.

وأخيرًا، فإنّ العدوان كان قد هيَّأ لنفسه غطاءً سياسيّاً دوليّاً، بل وعربيّاً جزئيّاً، لم يَسْبق له مثيلٌ، حتى في عدوان ١٩٦٧. ولكنّ الفضل في ما حدث من تغيير سياسي عربي ودولي، وحتى إسرائيلي، يعود في الدرجة الأولى إلى ما أشير إليه من مزايا تمتّع بها حزبُ الله في هذه المعركة، ثم ما تولّدَ من غضب شعبي عربي وإسلامي وعالمي على العدوان وعلى كلّ من أيّده أو تواطأ معه أو صَمَتَ عنه أو أعطاه الفرصةَ الكافيةَ ليَحْسم في الميدان.

صحيحٌ أنّ المرحلة التالية ستكون أشدَّ تعقيدًا على غير مستوى ومجالٍ ومكان. إلاّ أنّ هذه اللحظة وما أُنجز فيها يجب أن يأْخذا مَداهُما من الموقف الصحيح حتى يكون بالإمكان خوضُ الصراع في المرحلة الآتية خوضًا ناجحًا.

عمّان

منير شفيق

كاتب وناشط فلسطيني عربي